" سوق المعلوم مساق غيره " فى ضوء النظم القرآني

دكتور/صالح أحمد عبد الوهاب

المدرس/ بقسم البلاغة والنقد – جامعة الأزهر كلية

البنات الأزهرية– بالعاشر من رمضان

المقدمة :

الحمد لله عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى إخوانه من الرسل .

وبعد...

فقد كان للدراسة السابقة(" سوق المعلوم مساق غيره" بين علمي المعاني والبديع) رؤية بلاغية ترى أن " سوق المعلوم مساق غيره " مظهر من مظاهر العدول ، ومن ثمّ فهو إلى علم المعانى أقرب، ومن أبوابه ألصق.

ولما كانت تلك دعوة جديدة تحتاج إلى ما يعضدها ويؤيدها، كانت الضرورة تقتضى أنّ يشفع البحث المتقدم بدراسة تطبيقية مستقلة، تبرز من خلالها الفكرة التى انتهى إليها البحث المتقدم، وأثر هذا العدول فى خدمة الفكر وتجلية المعنى، وكيف تطلبه السياق واقتضاه المقام؟.

ولقد حبِّب إلىّ أن تكون هذه الدراسة فى النظم القرآنى ؛ بغية الوقوف على أهمّ ملامح هذا الفن فى النظم القرآنى، والتعرف على أهم أغراضه والظواهر الأسلوبية المصاحبة له، وهل اختلفت صوره عما عرف عند العرب ، وجوهر هذا الاختلاف ، وأثره فى الدرس البلاغى ؟ ومن ثمّ كان عنوان الدراسة " سوق المعلوم مساق غيره فى ضوء النظم القرآنى" وفضلاً عن كون هذه التسمية أقرب إلى الأدب مع النظم القرآنى، وأكمل فى الدلالة على المقصود كما قال ابن يعقوب المغربى([1])، فإن اتساع مدلولها يمنحها ثراء وفيضاً من الدلالات والأسرار لاتوجد فى غيرها من الأسماء الأخرى ؛ نظراً لتضمنها صوراً عديدة من التتريل ؛ من تتريل المعلوم مترلة المجهول، وتتريل المعلوم مترلة المنكر، وتتريل المعلوم مترلة المشكوك فيه، وتتريل المعلوم مترلة المسئول عنه[2]

وقد رأيت لتمام الفائدة أن يقسم البحث إلى مقامات مكتفياً فى كل مقام ببعض النماذج؛ قياساً للشبيه على الشبيه والنظير على النظير ، ولا أدّعى فى ذلك السلامة من الخلل أو العصمة من الزلل، راجياً من إخواني بسط عذري، والصفح عما فيه سهوي، واستظهار ما خفي على فهمي ؛ وفاء بحق العلم، وبذلاً للنصيحة ، فإن وفقت فلله الحمد والمنة، وإن كانت الأخرى فليس للإنسان إلا ما سعى .

أولاً: سوق المعلوم مساق غيره لغرض التمني.

التمني هو طلب شيء محبب إلى النفس غير موثوق بحصوله ، ومن ثمّ عرفه ابن يعقوب بقوله:" طلب حصول الشيء بشرط المحبة ونفي الطماعية في ذلك الشيء"(٣)

ونفي الطماعية إمّا لاستحالة الأمر المتمنّى فى ذاته أو لفوات وقته "إن كان ممكناً" وفي كلتا الحالتين يكون الأمر المتمنّى غير موثوق بحصوله ، وتكون الأداة المناسبة له " ليت" والتعبير بها يكون على ظاهره ، وقد يزداد الأمر المتمنىّ بعداً واستحالة فيعدل عنها إلى " لو" غير أن هذا العدول لايخرج الأمر المتمنى عن استحالته وعدم الوثوق بحصوله ، وإن خرج الكلام على خلاف الظاهر.

أمّا عندما ينزّل المتكلم الأمر المتمنّى منزلة الممكن يكون الكلام من سوق المعلوم مساق غيره، ويتمثّل ذلك في أساليب التمنّي الواردة بأدوات الاستفهام ، ومن ثمّ علّل البلاغيون سبب العدول عن " ليت " إلى "هل" قائلين :" والسر فى العدول عن " ليت" التي هى الأصل فى التمني إلى " هل" فى نحو هذا الكلام ،إبراز المتمنىّ في صورة المستفهم عنه الذى لاجزم بانتفائه لإظهار كمال العناية به حتى لايستطاع الإتيان به إلا في صورة الممكن الذى يطمع في وقوعه، ووجه كونه من الاعتبار المناسب للمقام أنّ أصل التمني إظهار الرغبة في الفائت مضياً أو استقبالاً إما لمجرد الاعتذار والاستعطاف ؛ ليرحم المتمنِّى، وإما لمجرد موافقة الخاطر والترويح عن النفس ... فإذا اقتضى المقام الأبلغية لأحد هذين الوجهين مثلاً ، عدل عن أصل التمنِّي إلى صورة الاستفهام ؛ إظهاراً لزيادة كمال العناية ، أما مقام الأبلغية للاستعطاف فظاهر ... وأما مقامها للترويح عن النفس فلأنّ تخيلها أن المتمنَّى ممكن أشدّ ترويحاً من خلافه"(٤)

وقد سجل النظم القرآني مشاهد من سوق المعلوم مساق المجهول لغرض التمنّي، يظهر لنا من خلالها دور هذا الفن في تصوير ما فى خلجات النفس من رغبات

وأمنيات في وقت لا يجدي فيه الندم، ولا ينفع فيه التمنّي؛ ومن ذلك قوله تعالى:(هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ)(٥)

وقوله : (وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ)(٦)

وقوله: (وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ * كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ * فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لايَشْعُرُونَ * فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ)(٧)

وقوله: (قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ)(٨)

وقوله: (وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ)(٩)

وقوله: (وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ)(١٠)

وقوله: (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ)(١١)

وقوله: (يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ)(١٢)

فكل هذه أمنيات ورغبات بدلالة السياق وقرائن الأحوال ناسبها التعبير بـــ" ليت" لاستحالة الأمر المتمنَّى وعدم الوثوق بحصوله ، ولكنَّ أصحابها عدلوا عن ذلك ــ فيما حكاه النظم القرآني عنها- استجابة لخواطر النفس وتلبية لرغباتها؛ حيث استبد بهم الشعور بالأمل فرأوا غير الممكن ممكناً وغير الواقع واقعاً فساقوا الأمر المعلوم لديهم، وهو عدم وجود الشفيع يوم القيامة والرد إلى الدنيا ، وكذلك عدم الإمهال والإنظار والإغناء والفرار ، مساق المستفهم عنه المطلوب حصوله فى الذهن ، وذلك لشدة الحاجة إلى المتمنى والرغبة فيه.

وحتى نبصر القيمة البلاغية من سوق المعلوم مساق المجهول ودوره في خدمة الفكرة وتجلية المعنى لابد من الوقوف مع هذه النماذج بالدراسة والتحليل .

ففى سياق سورة الأعراف (هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ) يتكرر الاستفهام بـــ" هل" (هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ) (فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ) ويترّل المعلوم مترلة المجهول فى كلا الاستفهامين ؛ إذا المعنى فى الاستفهام الأول على النفى والإنكار والتقدير: ما ينتظرون إلا تأويله، فأنزلهم فى صورة من ينتظر وقوعه، وفى الحقيقة هم ليسوا كذلك ؛ لأنهم جاحدون وقوعه، والمعنى كما يقول ابن عاشور على الاستعارة التهكمية ؛ حيث شبه حال تمهلهم إلى الوقت الذى سيحل عليهم ما أوعدهم به القرآن بحال المنتظرين(١٣)

أما الاستفهام فى الثانى " فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ " فيفيد معنى التمنى ، أى ليت لنا من شفعاء ، أو رجوعاً إلى الدنيا، فأنزلوا الأمر المعلوم لديهم وهو عدم وجود الشفيع والرد إلى الدنيامترلة المجهول ، ومن ثم طلبوا حصوله فى الذهن .

وعلى ذلك فكلاهما من قبيل سوق المعلوم مساق المجهول، غير أن العدول من الاستفهام إلى النفى بـــ"هل" نصَّ عليه اللغويون (١٤) فإدراكه سهل ميسور ، أمّا سوق المعلوم مساق المجهول لغرض التمنى فيحتاج فى إدراكه إلى محاورة السياق واستنطاق الألفاظ ، حتى تشي بمعانيها، وتكشف الستر عن مكنونها ، ثمّ معاودة النظر وإطالته مرة تلو الأخرى ، ولا يكون ذلك إلا بإبصار القيمة البلاغية وراء سوق المعلوم مساق غيره في كلام المشركين :" فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ" وذلك حيث عاينوا مشاهد يوم القيامة ماثلة أمام أعينهم ، وأقرّوا على أنفسهم أنَّ ما جاءت به الرسل حق " قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ" فتأكد لهم أنّهم هلكى، وأنّهم فى العذاب غرقى، فاستبدَّ بهم الشعور باليأس وخيبة الأمل، فلا سبيل غير الأمانى يبثون من خلالها شكواهم ، فعمدوا إلى أسلوب التمنى؛ تتريلاً للمعلوم مترلة المستفهم عنه؛ تلبية لحاجتهم النفسية واستجابة لخواطرها وترويحاً عنها لما في الاستفهام من المحاورة التى خففت من همومها وأحزانها ، وذلك لأنّ الاستفهام يعطى المتمنِّي إحساساً

بقبول متمناه ، فهو عادة ما يسبق بتلطف في الطلب في مثل هذه السياقات ؛ وهذا التلطف تارة يكون بالإقرار أو الاعتراف كما هو واضح من قولهم فى هذا السياق" قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ" وقولهم فى سياقى إبراهيم وغافر:" إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا" وقولهم:" فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا"

والمتأمل للنِّظم القرآنى يجد السياق قد تناغم لإبراز هذه الحالة النفسية التي رأت البعيد قريباً والمحال ممكناً ، وأنَّ ما تتمناه لم يزل فى حيز الإمكان، فعمدت إلى المبادرة بالاعتراف؛ إقراراً بالجناية التي ارتكبوها، وتمهيداً للاستعطاف ، وكأنّ هذا الاستعطاف مصوغ لهم فى الاستجابة إلى متمنَّاهم من وجود شفيع أو الرجوع إلى الدنيا، وفي تقديم الجار والمجرور استدعاء فى الإجابة وتلطف فى الطلب ، وتكراره في قولهم " فيشفعوا لنا" لدفع توهم غير المراد حتى لايظنُّ السامع أنَّ أمر الشفاعة ليس لهم، وزيدت " من" التي لا تزاد فى الاستفهام الحقيقى تنبيهاً على تأكيد متمنَّاهم ، ومن ثمَّ كان فى العدول عن مقتضى الظاهر ما يؤكد قيمة هذا الفن البلاغية فى الكشف عن بواعث النفس ودوافعها، وإن شئت فوازن بين العدول فى هذا الأسلوب ، وبين مجيء الكلام على ظاهره في التمنِّي بـــ" ليت": (وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)[١٥] أوالتمنِّي بـــ " لو" فى قولهم : (فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ * فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) تدرك أن في العدول ترويحاً وشعوراً مفعماً بالأمل، وفي مقتضى الظاهر يأس وخيبة أمل، ومن ثم عمدوا إلى نفي الشفيع والصديق من تلقاء أنفسهم " فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ " لما يعتريهم من حالة نفسية يائسة وجدت فى التعبير بـــ"لو" ما يصور واقعها الأليم الذى حال بينها وبين متمناها.

أما في سياق سورة إبراهيم (وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ)[١٦]

فإننا نبصر فيه أكثر من عدول حيث عدل فيه من المضارع إلى الماضي ، ونزّل فيه غير المنكر مترلة المنكر، ووضع الضمير موضع الاسم الظاهر ، وعبر بـــ" هل" بدلاً من "ليت" وعدل في مدخول " هل " من الفعلية إلى الاسمية مع مزيد اختصاصها بالفعل، وكل ذلك مطلب سياق ومقتضى مقام ؛ وبيان ذلك أنَّ فى العدول عن الأفعال المضارعة إلى الأفعال الماضية" برزوا – فقال – استكبروا – كنّا " ما يتناسب مع

المقام؛ حيث إن السياق تتجه عنايته إلى تقرير مشاهد يوم القيامة أمام كل من الضعفاء والمستكبرين كى يرتدعوا عن هذا الانحراف الأخلاقى (الاستكبار – الاستضعاف) فناسب ذلك أن يذكر الماضى بدلاً من المضارع للتنبيه على تحقق الوقوع ، بخلاف سياق سورة غافر " (وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ)[١٧] فقدعبر فيه بالأفعال المضارعة " يتحاجون – فيقول" للتنبيه على أن السياق تتجه عنايته إلى إبراز ما بينهما من عداوات وخصومات وتبادل للتهم ،وإشعاراً بأنَّ ذلك يتجدد منهم ،وكأنَّهم كلما تذكروا ما كان من أمر رؤسائهم ووعودهم الكاذبة ازدادوا غماً وكرباً وحسرة فيعودون إلى مخاصمتهم. وتناغم السياق لإبراز هذا الملمح ؛ فأبصرنا عدولاً عن الاسم الظاهر إلى الضمير في سياق إبراهيم فى قوله تعالى:" قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ" وفى سياق سورة غافر ياتى الكلام على ظاهره في قوله تعالى: (قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ)[١٨] لأنَّ الغرض في سياق سورة إبراهيم يتعلق بالبعث وقدرة الله على الإحياء ، ومن ثم فتكرار الاسم الظاهر لايتعلق به كبير فائدة، فناسب ذلك الإتيان بالضمير موضع الاسم الظاهر، وإنما السؤال عن تكرار الاسم الظاهر مع إمكان إضماره ، وهذا مانراه فى سياق سورة غافر حيث المقام مقام تخاصم وتجادل وتبرؤ كل متبوع من تابعه، فناسب ذلك التعبير بالاسم الظاهر، لتقرير الغرض المسوق له الكلام؛ وهو التسجيل على كلا الفريقين بالاستكبار والاستضعاف.

وبعد هذه الموازنة تبرز لنا القيمة البلاغية وراء سوق المعلوم مساق المجهول لغرض التمني في السياقين ، وهو أنَّ الضعفاء قد خسروا أنفسهم فى الدنيا والآخرة ، فهم كانوا فى الدنيا ذيولاً وغنماً تساق وفى الآخرة فى النار، فهرعوا إلى كبرائهم ــ كعادتهم ــ يطلبون منهم الإغناء من عذاب الله ، وكان من مقتضى الظاهر أن يطلبوا هذا بـــ" ليت" لفوات وقته، ولكنَّهم عدلوا عن ذلك ؛ فسألوا عنه سؤال المستفهم ، وهذا يعكس لنا حالتهم النفسية المفعمة بالأمل كما تشير إلى ذلك الآيات ـــ خاصة أنَّهم يطلبون من ساداتهم الذين صوَّروا لهم ما ليس فى استطاعتهم من دفع العذاب عنهم أو النصرة لهم قال تعالى :(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)[١٩] وظلَّ الأمر كذلك حتى أسدل الستار وظهرت الحقائق واضحة أمام الضعفاء ، في ذلك اليوم يحس الضعفاء بخيبة آمالهم وسذاجة عقولهم وضياع أعمارهم ، فلا يجدون إلا الأماني يبثون من خلالها شكواهم ، ويروحون بها عن أنفسهم ، وعلى ذلك فالتأكيد فى

قولهم: " إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا" باعتبار حالتهم النفسية ، وليس باعتبار حال المتكبرين ، والسر البلاغى وراء هذا التأكيد ، هو إظهار الاستضعاف؛ لاستجلاب الرحمة، وكثيراً ما تسبق " هل" باعتراف أو تقرير كما سبق بيانه.

وبعد أن قدَّم الضعفاء بما يستجلب الرحمة، ويحث المخاطب على الوفاء بوعده ، عدلوا عن مقتضى الظاهر ، وساقوا المعلوم لديهم مساق المجهول المستفهم عنه؛ فقالوا متمنين:" فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ" كما فى سورة إبراهيم " فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ" كما فى سورة غافر، وذلك لما أحسّوه في كوامن أنفسهم من إمكانية الإغناء أو التخفيف ، أى أنَّهم غير طامعين فى دفع العذاب جملة ، وإنَّما مجرد الإغناء أو التخفيف كما هو مفاد من التنكير فى كلمتى " شيء " و " نصيباً " إذا المعنى على التقليل، أى ليتكم تغنون عنَّا ولو شيئاً قليلاً من عذاب الله، يقول الزمخشري :" فإن قلت: أىُّ فرق بين " مِن" في " من عذاب الله " وبينه في " من شيء"؟! قلت : الأولى للتبيين، والثانية للتبعيض ، كأنَّه قيل : هل أنتم مغنون عنَّا بعض الشيء الذى هو عذاب الله ، ويجوز أنَّ تكونا للتبعيض معاً ؛ بمعنى : هل أنتم مغنون بعض شيء هو بعض عذاب الله ، أي بعض من عذاب الله "[٢٠]

وفي سوقهم للمعلوم مساق غيره إخراج للاستفهام عن حقيقته ، إذ لايعقل أن يكونوا قد طلبوا منهم التخفيف حقيقة ، كما كانوا يلجأون إليهم فى مهامهم فى الدنيا، ولما كان الغرض من سوق المعلوم مساق المجهول فى سورة " إبراهيم " هو التمنِّي بدلالة السياق وقرائن الأحوال ، كان من الأولى حمله على التمنِّي كذلك في سياق " غافر" بعد دخولهم النار وزيادة رغبتهم فى الخلاص.

وكما عدل الضعفاء عن " ليت" إلى " هل" عدلوا كذلك عن مدخول هل من الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية في قولهم:" فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا" والسر البلاغى وراء هذا العدول هو إبراز هذه الأمنية في صورة الحاصل ، وإنَّما هم يستعجلون تحققها ، وذلك لأنَّ " هل" لها مزيد اختصاص بالفعل ، ولا يعدل عن ذلك إلا لسر بلاغي ، يقول الخطيب القزوينى:" ... ولهذين : أعنى اختصاصها بالتصديق وتخصيصها للمضارع بالاستقبال كان لها مزيد اختصاص بما كونه زماناً أظهر كالفعل ...ولهذا كان قوله تعالى :" فهل أنتم شاكرون" أدل على طلب الشكر من قولنا :"فهل تشكرون " وقولنا:" فهل أنتم تشكرون ؛ لأنّ إبراز ما سيتجدد فى معرض الثابت أدلُّ على كمال العناية بحصوله من إبقائه على أصله "[٢١]

وفى سياق سورة الشعراء نبصر قدرة هذا الفن في تصوير ما يستكن فى خلجات النفس ومكنوها، عندما تفعم بالأمل والرغبة في تغيير مصيرها ، فترى ما لاسبيل إلى تحققه محققاً وما لا يتخيل ممكناً على نحو ما كان من المجرمين الذين كذبوا بالقرآن عناداً وتكبراً، بعدما ظهرت دلائل قدرته، وبلغ من ظهور أثره كما لو كان محساً مشاهداً ، وذلك فيما حكاه النظم القرآني : (وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ * كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ * فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لايَشْعُرُونَ * فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ)[٢٢]

والمعنى كما يقول أبو حيان :" مثل ذلك السلك في قلوب قريش سلكناه في قلوب من أجرم؛ لاشتراكهما في علة السلك؛ وهي الإجرام "[٢٣]

ويظلُّ الأمر كذلك من العناد والتكبر وعدم الإيمان حتى مجيء العذاب يعقبه شدة أخرى، وهي المباغته، دون مقدمات أو أمارات، فيأخذون على غرة، حيث لا إمهال ولا إنظار ، ولكنَّهم لفرط ما فيه من الدهشة والذهول طارت عقولهم فساقوا المعلوم مجهولاً ؛ تلبية لخاطر النفس واستجابة لرغبتها، فقالوا متمنين :" هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ"، يقول أبو حيان:" وهذا على جهة التمنِّي ، والرغبة حيث لا تنفع الرغبة "[٢٤]

وفي هذا العدول ما يترجم حالة هولاء المجرمين النفسية، ويفصح عما بداخلها ، ونبصر ذلك من خلال العدول عن " ليت" إلى "هل" وتقديم المسند إليه على خبره شبه الفعلى ، للدلالة على تقوية المعنى وتأكيده ، ويبلغ بهم الأمل ذروته ، فيعدلون عن الفعل إلى الاسم في مدخول "هل" في قولهم:" هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ " لإظهار متمناهم في معرض الحاصل، وإنَّما هم يستعجلون حصوله.

وفى سياق سورة غافر: (قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ)[٢٥] يعترف المشركون بما أنكروه، اعتراف من عاش لحظات الموت والحياة ، ويقرّون على أنفسهم إقرار من تبددت به سبل النجاة فى سياق يشع بالندم والحسرة بعدما حال بينهم وبين ما يتمنون هذا الواقع الأليم ، وتلجلجت فى صدورهم أمنيات ورغبات ونفثات وعبرات فقالوا متمنين " هَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ" وهذا القول منهم من سوق المعلوم مساق المجهول لغرض التمنِّى ، وإلا فهم فى الحقيقة يعلمون أن ما يطلبونه لاسبيل إلى تحصيله لكونه محالاً فى ذاته ، يقول بعض الباحثين:" وقيمة التمنى بـــ"هل"هي إبراز المتمنَّى في صورة الممكن لشدة الحاجة إليه والرغبة فيه ، فالكفار فى الآية الكريمة يعلمون علم اليقين أنه لاخروج لهم ، وأنَّ العذاب هو

مصيرهم الأبدى ، ولكن حاجتهم الملحة إلى الخلاص قد غلبت على نفوسهم حتى صارت تفترض المستحيل ممكناً وغير الواقع واقعاً ؛ لتستريح بهذا الأمل الموهوم"[٢٦]

وتعاور التنكير في كلمتى " خروج" و" سبيل" لتأكيد هذا الشعور والرغبة فى الخلاص ، والمعنى أنَّ هولاء المشركين غير طامعين في خروج معين أو سبيل مخصوص، وإنَّما المراد :أيُّ خروج وأيُّ سبيل ، سواء أكان الخروج لائقاً أم غير لائق ، معجَّلاً أم مؤجَّلاً، وسواء أكان سبيله العفو والصفح أم التخفيف والإغناء ؟

وشبيه بهذا السياق ماحكاه النظم القرآنى عن بعض الظالمين عند مشاهدة العذاب (وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ)[٢٧] حيث تمنوا الرد إلى الدنيا بعدما انتفى عنهم الوليّ ورأوا العذاب، إذا المعنى كما يقول ابن عاشور:" أنهم لايجدون محيصاً ولا ولياً، فلا يجدون إلا الندامة على ما فات"[٢٨]

وتلك أمنية مستحيلة يناسبها التعبير بـــ"ليت" ولكنهم عدلوا عن ذلك، وأخرجوا الكلام عن ظاهره، فسألوا عما هو معلوم؛ لإظهار المتمنَّى في صورة الممكن الذى لا جزم بانتفائه .

وغير ذلك من الشواهد التي يضيق المقام بحصرها، والتى يساق فيها المعلوم مساق غيره لغرض التمني ، غير أن هذا الغرض ليس له ضابط يضبطه ، وإنما يفهم من خلال بعض الإشارات والإيحاءات التي تنبعث من جنبات السياق ودلالات التراكيب.

ثانياً: سوق المعلوم مساق غيره لغرض الاستهزاء والسخرية.

قال تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ)

تعددت صور هذا الفن في هذا السياق في أسلوب يتسم بالسخرية والاستهزاء بشأن النبي ﷺ كما حكاه النظم القرآني عن كفار مكة، فعدلوا عن التصريح بذكر اسمه ﷺ إلى لفظ " رَجُلٍ " استهزاء ، مع أنَّهم يعرفونه، ويعرفون نسبه، ورددوا أمره بين أمرين هما : "الافتراء ، والجنون " فى قولهم:" أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ "

والسر البلاغى من تجاهلهم وسوقهم للمعلوم مساق المجهول هو الاستهزاء والسخرية ، وكأنَّهم بحثوا فى أمره ﷺ بحث متأمل متدبر ثمَّ انتهوا إلى هذه النتيجة التى أخذوا يتواصون بها عن طريق القول " وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا..." وكأنَّ مرحلة اللّمز والغمّز لم تؤت ثمارها، فعمدوا إلى الاستهزاء به ــ ﷺ ــ عن طريق سوق المعلوم مساق

المجهول، وإلا فهو عندهم ـ ﷺ ـ أزكى عقل وأصدق حديث وأشهر علم، يقول الزمخشرى:" فإن قلت : كيف كان رسول الله ﷺ مشهوراً علماً فى قريش ، وكان إنباؤه بالبعث شائعاً عندهم ، فما معنى قوله : " هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ "فنكّروه لهم ، وعرضوا عليهم الدلالة عليه؛ كما يدلّ على مجهول في أمر مجهول ؟ قلت : كانوا يقصدون الطنّز والسخرية ، فأخرجوه مخرج التحلّي ببعض الأحاجى ، التى يتحاجى بها للضحك والتلهّى متجاهلين به وبأمره"(٢٩)

وذهب ابن عاشور إلى احتمال كون هذا التقاول موجهاً إلى الواردين مكة في موسم الحج ، وعليه يكون التعبير بلفظ " رَجُلٍ " على ظاهره ،أى ليس عدولاً ولا خروجاً، مستدلاً بقول أبى ذر الغفاري ـ قبل إسلامه ـ لأخيه : اذهب فاستعلم لنا خبر هذا الرجل الذى يزعم أنه نبي ، يقول ابن عاشور:" وإن كان قول المشركين موجهاً إلى الواردين مكة في موسم الحج كان التعبير بـ" رَجُلٍ " جرياً على مقتضى الظاهر، لأنّ الواردين مكة لا يعرفون النبي عليه الصلاة والسلام ، ولا دعوته ، فيكون كقول أبى ذر – قبل إسلامه –لأخيه اذهب فاستعلم لنا خبر هذا الرجل الذى يزعم أنه نبي" (٣٠)

والذى يقتضيه السياق ويتطلبه المقام أن يكون العدول فيهما معاً ؛ سواء أكان هذا التقاول بين كفار قريش بعضهم مع بعض، أم كان موجهاً إلى الوافدين مكة فى موسم الحج ؛ لأنَّ قصدهم من قولهم: " هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ " هو الاستهزاء به مطلقاً سواء فى ذلك الحاضر مكة والغائب عنها، والساكن فيها والبادي ، وأمَّا ما استدل به ابن عاشور من كلام أبى ذر فلا يرشحه المقام ؛ لأنَّ أبا ذر لم يكن يعرف شيئاً عن الإسلام ولا عن رسوله ﷺ فالإنشاء منه على حقيقته " اذهب فاستعلم لنا خبر هذا الرجل"، أما كفار قريش فالإنشاء منهم قصد به الاستهزاء والسخرية " هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ " وإلا فهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم كما أخبر النظم القرآني عنهم (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)(٣١)

وإذا كان هذا الفن من لدن ابن المعتز الذى اصطلح على تسميته " تجاهل العارف " إلى عصر السكاكى الذى أسماه " سوق المعلوم مساق غيره " قد انحصر فى صورتين كما هو موضح فى البحث المتقدم (٣٢):

إحداهما: سؤال المتكلم عما يعلم حقيقة تجاهلاً منه.

والأخرى: تردد الأمر بين شيئين مع أنّ المعلوم للمتكلم أحدهما .

فإننا نبصر لهذا الفن فى ضوء النظم القرآنى، وبالتحديد فى هذا السياق صورتين جديتين لم تعرفا عند العرب شعراً ونثراً ــ فيما أعلم ــ:

الأولى: تنكير المعرَّف؛ تحقيراً واستهزاء.

الثانية: تردد الأمر بين شيئين مع أنَّ المعلوم للمتكلم عكسهما ؛ وبيان ذلك أنَّ مجنون ليلى مثلاً يعلم أنَّ محبوبته من البشر وليست من الظباء ، فسأل الظباء عما يعلم، وهى الصورة الأولى ، ثم ردد أمر محبوبته بين أمرين " كونها من الظباءــ كونها من البشر" والمعلوم له أنَّها من البشر ، ولكنَّه احتال فى توصيل المعنى فأظهر للسامعين أنه التبس عليه أمرها وذلك فى قوله:

بالله ياظبيات القاع قلن لنا   ليلاي منكنَّ أم ليلى من البشر

أما فى السياق ــالذى معناــ فنلحظ فيه أنَّ كفار قريش رددوا أمر محمدﷺ بين أمرين هما الافتراء والجنون ، والمعلوم لهم عكسهما ، فهو عندهم صادق أمين فليس بمفتر كما زعموا ، وحكّموه فيما بينهم فى عظائم الأمور، فليس بمجنون.

أما عن الصورة الأولى فى هذا السياق فليس كل تنكير يعد من سوق المعلوم مساق غيره ، وإنَّما يفهم ذلك من خلال السياق ودلالات التراكيب ، وإن شئت فوازن بين التنكير فى هذا السياق " هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ " والتنكير فى قولهم فى نفس السورة " وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ"(٣٣)

تجد التحقير فى السياق الثانى مفاداً من اسم الاشارة الموضوع للقريب" قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ رَجُلٌ " أما فى السياق الأول فالتحقير مفاد من تنكيرهم للمعرّف، وكأنَّه لا أصل له ولا نسب.

ولست في معرض تحليل السياق الثانى لخلوه من هذا الفن ، وإنما الهدف من هذه الموازنة السريعة هو الوقوف على سياقين أفادا غرضاً واحداً؛ وهو السخرية والاستهزاء، إلا أنَّهما اختلفا في الأسلوب المعبَّر به ، حيث اقتضى السياق الأول أنَّ

يساق المعلوم مساق المجهول تحقيراً، واقتضى السياق الثاني أسلوب الإشارة الموضوع للقريب لأجل التحقير، مما يدل على أن " تنكير المعرف" صورة من صور هذا الفن ، مما جعل الخطيب القزويني يعد هذه الآية من " تجاهل العارف" لغرض التحقير قائلاً:" ومنه تجاهل العارف وهو كما سماه السكاكي " سوق المعلوم مساق غيره" لنكتة كالتوبيخ... والمبالغة في المدح... أو في الذم... والتدله في الحب... والتحقير في قوله تعالى في حق النبي ﷺ حكاية عن الكفار:" هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ " كأن لم يكونوا يعرفون منه إلا أنه رجل ما" (٣٤)

ومما سبق يمكن القول بأن غرض السخرية غرض عام في النظم القرآني تتعددت صوره ومظاهره ، ومن مظاهره وصوره أن يساق المعلوم مساق غيره تحقيراً واستهزاء ، إلا أن هذا الفن تارة يقترن بهذا الغرض وتارة يخلومنه، حسبما يقتضى المقام ويتطلب السياق.

ثالثاً: سوق المعلوم مساق غيره لغرض الإنكار.

الإنكار من الأغراض العامة في النظم القرآني ، سجلها القرآن حية نابضة وغضة طرية نحس بنبض الكلمات عند سماعها ، ونشعر بما توحيه الكلمات من إنفعالات في سياقها ، وكأنَّنا نعاين أسباب نزولها وزمان أصحابها، سواء أكان الإنكار موجهاً إلى كفار مكة أم غيرهم من أهل الكتاب ، أو حتى إلى الجماعة المسلمة في بداية أمرها ، ومن ثمّ تعددت أغراضه بتعدد حال المخاطب ، وبما يناسب حالته النفسية ويتلاءم مع عقيدته الفكرية فانطوت تحت الإنكار أغراض فرعية تطلبها السياق واقتضاها المقام ، وهي في مجملها تتقارب ولا تتباعد وتتآلف ولا تتنافر، ومن ثمَّ كان الإنكار مع التوبيخ والتقبيح والتهديد والوعيد والتكذيب والتقرير والتعجب والتعجيز... وغير ذلك من أغراض تتنوع بتنوع الذوق، وإدراك ما يكتنفه السياق من دلالات وإيحاءات لا يهتدي إلى سبر أغوارها إلا من حباه الله نعمة الفهم، وامتن عليه بحسن البيان.

ونظراً لمكانة الإنكار البلاغية وبما يسهم به في علاج النفس البشرية تنوعت طرق التعبير عنه ، واختلفت وسائل آدائه ، فأبصرناه في نوعي الأسلوب خبراً وإنشاء.

ومن تلك الأدوات والوسائل مجيء الإنكار في صورة سوق المعلوم مساق غيره ، والمتأمل للنظم القرأني يبصر تفاوتاً وتبايناً في طبيعة الإنكار ؛ حيث تتصاعد حدة الإنكار وتبلغ ذروتها حين يكون الغرض من الإنكار التهديد والوعيد، وتهدأ ويلين

جانبها حين يكون الغرض من الإنكار العتاب وإنصاف الخصم ... وهكذا لا يشبه أسلوب أسلوباً ولا غرض غرضاً.

ولعل من نافلة القول التنبيه على عدم إحاطة هذه الدراسة بهذه الأساليب وما ينطوي تحتها من أغراض ثانوية، وإنما تتجه عنايتها إلى إدراك القيمة البلاغية وراء سوق المعلوم مساق غيره لغرض الإنكار ودوره فى إبراز المعنى وتجلية الفكرة ، وذلك لما يثيره التجاهل من انفعالات ودلالات تبلغ ذروتها تارة وتهدأ تارة أخرى ، بما يتلاءم مع السياق ويناسب المقام ، وإن شئت دليلاً على ذلك فإليك كلام رب العالمين فى مقامين مختلفين ، يهدف أحدهما إلى إعنات الخصم وتعجيزه ، ويهدف الآخر إلى إنصاف الخصم، وكلاهما من سوق المعلوم مساق غيره.

أولاً: سوق المعلوم مساق غيره فى مقام إعنات الخصم وتعجيزه.

قال تعالى: (ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (٣٥)

تضمن هذا السياق مشاهد من سوق المعلوم مساق المجهول لغرض الإنكار التعجيزي، وتصاعدت حدة الإنكار حتى بلغت ذروتها بما يتلاءم مع طبيعة المقام ، حيث جاءت هذه الآيات ردا على أقوال المشركين الكاذبة فيما حكاه النظم القرآنى عنهم فى قوله تعالى : (وَقَالُواْ هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاء بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ * وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)(٣٦) والمعنى كما يقول الزمخشري :" أنهم قسّموا أنعامهم فقالوا : هذه أنعام حجر ، وأنعام محرمة الظهور ، وهذه أنعام لا يذكرون عليها اسم الله ، فجعلوها أجناساً بهواهم، ونسبوا ذلك التجنيس إلى الله ... كانوا يقولون فى أجنة البحائر والسوائب ما ولد منها حياً فهو خالص للذكور لا تأكل منه الإناث، وما ولد منها ميتاً اشترك فيه الذكور والإناث " (٣٧)

ويبدو أنَّ مقولة المشركين هذه تحتاج إلى توضيح للوقوف على أبعاد السياق وجوانبه ، حتى تكتمل الصورة ويتضح المعنى ، ولا يكون ذلك إلا بالرجوع إلى سياق سورة المائدة ، فيما حكاه النظم القرآنى عنهم أيضاً في قوله تعالى: (مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ)(٣٨)

يقول الزمخشري : " وكان أهل الجاهلية إذا انتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحّروا بها ؛ أي شقوها وحرّموا ركوبها ، ولا تطرد عن ماء ولا مرعى ، وإذا لاقيها المعيي لم يركبها ، واسمها البحيرة، وكان يقول الرجل : إذا قدمت من سفرى أو برئت من مرضي فناقتي سائبة ، وجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها ، وقيل : كان الرجل إذا أعتق عبداً قال : هو سائبة فلا عقل بينهما ولا ميراث ، وإذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم ، وإذا ولدت ولداً فهو لآلهتهم ، فإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم ، وإذا أنتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا: قد حمى ظهره ، فلا يركب ولا يحمل عليه ولايمنع من ماء ولا مرعى ، ومعنى " ماجعل" ما شرع ذلك ولا أمر بالتبحير والتسيب وغير ذلك ، ولكنهم بتحريمهم ما حرّموا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون "(٣٩)

وبهذا الربط بين السياقين نبصر السر البلاغى وراء سوق المعلوم مساق غيره، والسؤال عما هو معلوم في قوله تعالى:" قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ " وقوله :" وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا " حيث إنَّ الله لم يحرم شيئاً، وإنَّما أخرج المعلوم مخرج المجهول إعناتاً للخصم وإلزامه الحجة بطريق برهاني ، وذلك بتقديم المفعول به حتى ولى حرف الهمزة " آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ " للدلالة على المبالغة فى الإنكار ، إذا المعنى على إنكار الفعل وليس المفعول، وهذا أبلغ فى الإنكار والمعنى : إن كان هناك تحريم فما المحرَّم ؟! أهو الذكور، أم الإناث ، أم اشتمال الأرحام على الذكور والإناث معاً ؟! فلو أجابوا بالذكور، لزم تحريم الذكور، ولو أجابوا بالإناث، لزم تحريم الإناث، ولو أجابوا بما اشتملت عليه الأرحام من ذكور وإناث لزم تحريمهما جميعاً ، فإذا عجزوا عن تحديد نوع المحرَّم انتفى

التحريم من أساسه ، وهذا أسلوب بديعى يعرف بـــ" نفى الشيء بإيجابه عند ابن رشيق ، وبـــ" عكس الظاهر" عند ابن الأثير(٤٠)

يقول الإمام عبد القاهر:" آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ " اخرج اللفظ مخرجه إذا كان قد ثبت تحريم فى أحد الأشياء ، ثم أريد معرفة عين المحرَّم ، مع أنَّ المراد إنكار التحريم من أصله، ونفى أنَّ يكون قد حُرِّم شيء مما ذكروا أنَّه محرَّم، وذلك أنَّ الكلام وضع على أنَّ يجعل التحريم كأنَّه قد كان ، ثم يقال لهم : أخبرونى عن هذا التحريم الذى زعمتم ، فيم هو؟ أفي هذا ، أم في ذاك أم فى الثالث ؟ ليتبين بطلان قولهم ، ويظهر مكان الفرية منهم على الله تعالى"(٤١)

وإنَّما جاءت بلاغة سوق المعلوم مساق غيره من إقامة الحجة عليهم بطريق برهاني ، وهذا الطريق البرهاني يتمثل في انتفاء أخص صفات الموصوف ، وإذا انتفى عن الموصوف أخص صفاته فهذا يعد نفياً للموصوف أصلاً ؛ فظاهر الكلام يوهم أنَّ هناك تحريماً، وإنَّما السؤال عن المحرَّم، وفى الحقيقة أنَّه لا تحريم ولا محرم ، وعليه يكون الكلام من الخروج على مقتضى الظاهر لنكتة، وهى إعنات الخصم وتعجيزه، يقول الفراء :" أجاءكم التحريم فيما حرمتم من السائبة والبحيرة والوصيلة والحام من الذكرين أم من الأنثيين ؟ فلو قالوا: من قبل الذكر ، حرم عليهم كل ذكر ، ولو قالوا: من قبل الأنثى ، حرمت عليهم كل أنثى ، ثم قال: " أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ" يقول : أم حرم عليكم اشتمال الرحم ؟ فلو قالوا ذلك لحرم عليهم الذكر والأنثى ؛ لأنّ الرحم تشتمل على الذكر والأنثى"(٤٢)

ومعنى التعجيز فى السياق واضح وعناية السياق تتجه إلى إظهاره بعد هذه السلسلة من الافتراءات والأقوال الكاذبة من تحريم بعض الحيوانات على الإناث دون الذكور ، فناسب ذلك أن يطالبوا بدليل التحريم ، على نحو قوله تعالى:" نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ " وقوله: " أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا " وحيث لم يكن لهم علم ، و لم يكونوا شهداء على ذلك فحجتهم مدحوضة وأقوالهم مردودة عليهم، يقول الزمخشري :" أخبرونى بأمر معلوم من جهة الله تعالى يدل على تحريم ما حرمتم ... بل أكنتم شهداء ، ومعنى الهمزة للإنكار ، يعنى أم شاهدتم ربكم حين أمركم بهذا التحريم""(٤٣)

والجدير بالذكر أن النظم القرآني ساق المطالبة بالدليل مساق المجهول أيضاً فى أسلوب إنشائي يهدف إلى إعمال الفكر وإثارة العقل كما هو مفاد من أسلوب الأمر " نَبِّؤُونِي " والاستفهام " أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء " إذ لا علم لهم ولا مشاهدة ، فساق هذه الأمور المعلومة لديه مساق المجهولة حتى يسقط فى أيديهم وويعلموا أنهم قد ضلوا ، لاسيما وقد حذف المسند إليه فى قوله" حرم" للدلالة على العلم به، لكون المسند لايصلح إلا له ؛ لأن قضية التحريم والتحليل من الأمور التى يختص بهاالله_عز وجل_

وجدير بالذكر أن معنى التوبيخ جليّ فى السياق و لم يغب عن العبارة ، فهو بجوار التعجيز يسانده ويعضده ويرشحه ولا يستبعده ، كي يدرك القاريء والمتلقي قبح ما أقدموا عليه من هذه الافتراءات المزعومة والأقوال المدحوضة بعد حديث النظم القرآنى عن مظاهر إنعام الله عليهم فى قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ) (٤٤)

فما كان منهم إلا الإساءة بعد الإحسان والجحود بعد الإنعام .

وشبيه بهذا السياق قوله تعالى : (قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ) (٤٥)

فالنبي ﷺ يعلم أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ لم يأذن لهم فيما حرّموا أو حللوا، ولكنه ساق الأمر المعلوم مساق المجهول إنكاراً عليهم ، ودحضاً لدعواهم بطريق الاستدلال والجدل، وبيان ذلك أن يقال لهم: إن كان ما تقولونه حقاً من تحريم السائبة والبحيرة والوصيلة والحام فمن الذى أعلمكم بهذا ؟ ، وأذن لكم فيه ، وإن كان من تلقاء أنفسكم، فهذا افتراء على الله ــ فأصابهم العنت وعجزوا عن المعارضة.

وليس المراد من النظم القرآني نفي أنَّ يكون الله قد أذن لهم فيما حرّموا وحللوا ، وأنَّ غير الله هو الذى أذن لهم ، وإنَّما المراد نفي الإذن من أساسه ، لأنَّه قد يتوصل إلى إنكار الفعل بإنكار أحد متعلقاته التى ليس له فى الخارج معمولات سواها يقول الإمام

عبد القاهر: " وقد يكون أن يراد إنكار الفعل من أصله ، ثم يخرج اللفظ مخرجه إذا كان الإنكار في الفاعل مثال ذلك قوله تعالى:" قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ... ومعلوم أن المعنى على إنكار أن يكون قد كان من الله تعالى إذن فيما قالوه ، من غير أن يكون هذا الإذن قد كان من غير الله فأضافوه إلى الله إلا أن اللفظ قد أخرج مخرجه إذا كان الأمر كذلك ، لا أنّ يجعلوا فى صورة من غلط فأضاف إلى الله تعالى إذناً كان من غير الله ، فإذا حقق عليه ارتدع"(٤٦)

وزاد المعنى وضوحاً الدكتور/ صباح عبيد دراز قائلاً:" والإنكار يتناول الفعل " أذن" من أساسه وينفيه ويوبخ عليه ، وقدم الاسم لانحصار الفعل فيه ، إذ ليس هناك إلا مصدر واحد يملك التحريم والتحليل، هو الله تعالى ، فهو إنكار للفعل بطريق برهاني"(٤٧)

وتناغم السياق لإظهار تعجيزهم وتوبيخهم فقدم المسند إليه على خبره الفعلى " آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ " لإفادة اختصاص التحريم والتحليل بالله دون غيره ، وأن ما ادعوه من تحريم السائبة والبحيرة والوصيلة والحام ما هو إلا محض فرية على الله، يقول الإمام الزمخشري :"وكفى بهذه الآية زاجرة زجراً بليغاً عن التجوز فيما يسأل عنه من الأحكام ، وباعثة على وجوب الاحتياط فيه، وأن لايقول أحد فى شيء جائز أو غير جائز إلا بعد إيقان وإتقان ، ومن لم يوقن فليتق الله وليصمت ، وإلا فهو مفتر على الله"(٤٨)

رابعاً: سوق المعلوم مساق المجهول لغرض الإنصاف .

" النصف والنصفة والإنصاف إعطاء الحق ...وأنصف الرجل صاحبه إنصافاً أى عدل ، ويقال أنصفته من نفسه"(٤٩)

وهو مشتق من النصف ، وهو أحد شقي الشيء ، فكأنَّ المتكلم عندما يخرج المعلوم لديه مخرج المجهول يكون بذلك قد أنصف الخصم؛ حيث جعله شريكاً له فى الرأي متساوياً معه فى الحكم، فيكون له الحق فى القبول والرفض والتسليم والرد، دون جدال أو مخاصمة، ولا يكون ذلك إلا إذا سيقت الأمور المعلومة مساق المجهولة ؛ ويكثر ذلك في مقام الدعوة حيث يكون الداعية واثقاً من صدق دعواه ، وعنده من

اليقين بها ما لايبلغ منتهاه، فيعمد إلى الحوار الهادىء، والخطاب الهادف، والأسلوب اللين ، مع حسن العرض وقوة الحجة، وقد سجل النظم القرآنى هذه المشاهد، على نحو ما كان من مؤمن آل فرعون فيما حكاه النظم القرآني عنه: (وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ * يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ) (٥٠)

فوازن بين ما حكاه النظم القرآنى عن مؤمن آل فرعون وبين كلام فرعون، كي تقف على بلاغة هذا الفن وما يحدثه فى النفس من تهيئة وتوطئة لما يطرح عليها، تجد فرعون قد استبد برأيه، فصادر جميع الآراء فجاء كلامه مجرداً من الإقناع، عارياً عن الحقيقة والحيادة والإنصاف ، بخلاف مؤمن آل فرعون فقد عرض الأمر دون تعصب أو تحيز، مع شدة إيمانه بدعوة موسى كما وصفه النظم القرآنى" رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ " وذلك فى قوله " وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ " فلا يملك المتلقي بعد هذه الحيادية التامة الإ أن يتجرد من سلطان الهوى ويفكر فى الأمر ويعمل فيه عقله وفكره .

والجدير بالذكر فى هذا السياق أن هذا الفن قد فارق أسلوب الاستفهام و لم يقترن به كما فى الآيات السابقة، وإن اقترن بأسلوب إنشائى آخر وهو أسلوب الشرط " وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ" وهذا مطلب سياق ومقتضى مقام، لما فى التعبير بـــ" إن" الشرطية من الدلالة على الاحتماليه التى تتلاءم مع الإنصاف ، لما يتطلبه المقام من الأخذ والرد وتبادل الآراء، يقول الزمخشري: " احتاج فى مقاولة خصوم موسى ومنكريه إلى أن يلاوصهم ويداريهم و يسلك معهم طريق الإنصاف فى القول ، ويأتيهم من وجهة المناصحة ، فجاء بما علم أنَّه أقرب إلى تسليمهم لقوله، وأدخل فى تصديقهم له وقبولهم منه فقال: وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ " وهو كلام المنصف فى مقاله غير المشتط فيه ، ليسمعوا منه ولا يردوا عليه"(٥١)

وعلق كل من أبي حيان وأبي السعود على هذا النمط من التعبير فقال الأول : " سلوكاً لطريق الإنصاف في القول" (٥٢) وقال الأخر "... وهو كلام صادر عن غاية الإنصاف وعدم التعصب(٥٣)

وتقديم احتمال الكذب على الصدق فى قوله: وَإِن يَكُ كَاذِبًا " لدفع توهم أن يظن به أنه ينتصر لموسى ــ عليه السلام ــ يقول ابن المنير :" لقد أحسن الفهم والتفطن لأسرار هذا القول... لرفع التهمة ، وإبعاد الظن ، وإدلالاً بأن الحق معه "(٥٤)

ولا يخلو هذا الحوار الهادىء والأسلوب اللين من التحذير كما هو مفاد من التعبير بالبعضية فى قوله: " يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ " للدلالة على المبالغة ، فإن كان البعض من عذاب الله مما يخاف ويحذر فكيف بالكل ؟! يقول الألوسى : " وفيه مبالغة في التحذير ، فإنَّه إذ حذَّرهم من إصابة البعض، أفاد أنه مهلك ومخوِّف، فما بال الكل؟! "(٥٥)

وبرغم وجازة قول مؤمن آل فرعون في هذا الغرض ، إلا أنه فى غاية الإنصاف وعدم التعصب ، فقد اشتمل كلامه على التوبيخ والإنصاف والتعريض، فهو من إيجاز القصر، أما التوبيخ فظاهر فى قوله تعالى : " أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ " حيث وبخهم على إرادة قتله لعدم وجود ما يدعو إليه كما هو مفاد من الاستفهام الإنكاري التوبيخي يقول الزمخشري : " وهذا إنكار عظيم وتبكيت شديد، كأنه قال: أترتكبون الفعلة الشنعاء التى هى قتل نفس محرمة ، وما لكم علة قط فى ارتكابها إلا كلمة الحق التى نطق بها وهى قوله: " رَبِّيَ اللَّهُ " (٥٦)

وأما الإنصاف ففي قوله: " وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ " حيث أخرج الكلام على مقتضى الظاهر استجابة للمقام ومراعاة لأحوال المخاطبين .

وأما التعريض ففي قوله : " إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ " فلا يخلو من تعريض بفرعون ، يقول أبو حيان : " وفيه تعريض بفرعون؛ إذ هو فى غاية الاسراف على نفسه ؛ بقتل أبناء المؤمنين ، وفي غاية الكذب إذ ادعى الألوهيه والربوبية ، ومن هذا شأنه لا يهديه الله أبداً" (٥٧)

ومن النماذج الواضحة فى هذا المقام أيضاً ما حكاه النظم القرآنى عن رسول الله – ﷺ – في قوله تعالى:(قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ

لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قُل لّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ) (٥٨)

فمن يتأمل السياق يبصر معنى الإنصاف من خلال سوق المعلوم مساق المجهول ، يقول الفراء:" والمعنى فى قوله:" وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ " إنا لضالون أو مهتدون، وإنكم أيضاً لضالون أو مهتدون، وهو يعلم أن رسوله المهتدى ، وأن غيره الضال ... وهو فى القرآن وفى كلام العرب كثير ، أن يوجه الكلام إلى أحسن مذاهبه إذا عرف"(٥٩)

غير أننا فى هذا المقام نبصر تصاعد حدة الإنكار من قبل المخاطبين قابلها تعجيز وتقرير لمواجهة هذا الانحراف العقدي كما هو مفاد من تعدد الأساليب الإنشائية فى قوله : " قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ " (٦٠)وقوله: " مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ " (٦١) وقوله : " قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ" فكل هذه الأساليب تشي بما يضمره هولاء المشركون من عناد وتكبر ، فاقتضى المقام التوكيد ، فجاء التوكيد مطلب سياق ومقتضى مقام فى قوله: " وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ " وهذا التوكيد بـــ" إنَّ" واسمية الجملة ، واللام المزحلقة باعتبار حال المخاطبين وليس باعتبار حال المتكلم؛ لأنّ النبي ﷺ يعلم أنه على هدى وأنَّ غيره على ضلال ، إلا أنَّه أخرج الكلام على مقتضى الظاهر على عادة العرب عندما يريدون إنصاف الخصم واستدراجه ، يقول محيى الدين الدرويش: " وهو فن يعتبر من البلاغة محورها الذى تدور عليه ، لأنَّه يستدرج الخصم ، ويضطره إلى الإذعان والتسليم والعزوف عن المكابرة واللجاج ، فإنه لمَّا ألزمهم الحجة خاطبهم بالكلام المنصف ، الذى يقول من سمعه للمخاطب به: قد أنصفك صاحبك " (٦٢)

وغاية الإنصاف فى هذا السياق أن النبي – ﷺ– نسب الإجرام إلى نفسه وجماعة المؤمنين ــ وهم منه براء ــ وخص المشركين بالعمل فى قوله: " قُل لّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ"

إذا ففى الكلام عدول ، ومقتضى الظاهر أن يقال فى غير القرآن: وإنّا على هدى وإنّكم على ضلال ، ولكنه عدل عن ذلك ، وأبهم الأمر لفائدة عظيمة ، وهى إحالة المشركين إلى عقولهم كي يفكروا فيما هم عليه ويوازنوا بين أعمالهم وأعمال المؤمنين،

وفى هذا المعنى يقول الخطيب القزوينى:" ... والتعريض فى قوله:" " وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ "وفى مجيء هذا اللفظ على الإبهام فائدة أخرى وهى أنه يبعث المشركين على الفكر فى حال أنفسهم وحال النبي- صلى الله عليه وسلم- والمؤمنين، وإذا فكروا فيما هم عليه من غارات بعضهم على بعض، وسبي ذراريهم، واستباحة أموالهم، وقطع الأرحام، وإتيان الفروج الحرام، وقتل النفوس التى حرم الله قتلها، وشرب الخمر التى تذهب العقول وتحسن ارتكاب الفواحش ، وفكروا فيما النبي – عليه السلام- والمؤمنون عليه من صلة الأرحام ، واجتناب الآثام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإطعام المساكين، وبر الوالدين، والمواظبة على عبادة الله تعالى ، علموا أن النبي – عليه السلام – والمسلمين على الهدى، وأنَّهم على الضلالة، بعثهم ذلك على الإسلام ، وهذه فائدة جليلة " (٦٣)

وفي التعبير بحرفي الجر" على " و" في" ما يؤكد معنى التعريض ؛ لما يوحيه حرف الجر " على " من استعلاء جماعة المؤمنين ، فكأنَّهم يرون الأشياء على حقيقتها ، بخلاف ما يوحيه حرف الجر" في" من الظرفية المشعرة بانغماس المشركين فى الضلال، يقول أبو السعود:" واختلاف الجارين للإيذان بأن الهادي كمن استعلى مناراً ينظر الأشياء ويتطلع عليها ، والضال كأنَّه منغمس فى ظلام لايرى شيئاً أو محبوس فى مطمورة لا يستطيع الخروج منها"(٦٤)

ومن الظواهر الأسلوبية في هذا الغرض ما يكتنفه السياق من تعريض بالمخاطب على ما شاهدناه من مؤمن آل فرعون عندما عرض بفرعون – فيما حكاه النظم القرآنى عنه- وما نشاهده فى هذا السياق من تعريض بالمشركين، وذلك من خلال أسلوب اللف والنشر المرتب ؛ جيث ذكر النظم القرآنى حال المهتدي وحال الضال وفق حال الفريقين ، إشارة إلى استحقاق النبي ﷺ وجماعة المؤمنين الهدى واستحقاق المشركين الضلال ، يقول الزمخشري: " وفى درجه بعد تقدمة ما قدَّم من التقرير البليغ دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى ومن هو في ضلال مبين ، ولكن التعريض والتورية أفضل بالمجادل إلى الغرض ، وأهجم به على الغلبة، مع قلة شغب الخصم ، وفل شوكته بالهوينا"(٦٥)

كما أن من الظواهر الأسلوبية أن المتكلم يشرك نفسه دائماً مع المخاطب ؛ إشعاراً بأنهم جميعاً يواجهون مصيراً واحداً ، كما كان من مؤمن أل فرعون عندما أشرك نفسه مع قومه فى قوله: " ياقوم – فمن ينصرنا – جاءنا – " تأليفاً لقلوبهم واستمالة لمشاعرهم، وكما في سياق سورة سبأ في قوله تعالى: " لاتسألون – لا نسأل – يجمع بيننا – يفتح بيننا".

ولا يقتصر معنى الإنصاف على الخصم بل يتعداه إلى غيره ، والنظم القرآنى مليء بذلك ، ولكن يحتاج المرء فى معرفة ذلك إلى تتبع خصائص الألفاظ ودلالات التراكيب والغرض المسوق له الكلام وإدراك ملابسات السياق وجوانبه، ومن الأمثلة التى سيق فيها المعلوم مساق المجهول أيضاً لغرض الإنصاف ما حكاه النظم القرآنى عن شاهد يوسف فى قوله تعالى:" وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ "(٦٦)

ولا يستقيم هذا المعنى إلا إذا كان الشاهد عالماً ببراءة يوسف– عليه السلام– فأخرج ما هو معلوم لديه مخرج المجهول اعتماداً على العقل واستنادا إلى الدليل، فأبهم اللفظ خشية أن يكون هو الفاضح لها، واستدلالاً على دفع التهمة عن يوسف بطريق برهاني، يقول ابن المنير:" وإن كان الشاهد بعض أهلها، كان فى الدار فبصر بها من حيث لا تشعر، فأغضبه الله ليوسف؛ بالشهادة له وإقامة الحجة ... فهذا – والله أعلم– كان حقه أن يصرح بما رأى فيصدق يوسف ويكذبها ، ولكنه أراد ألا يكون هو الفاضح لها، ووثق بأن انقطاع قميصه إنما كان من دبر فنصّبه أمارة لصدقه وكذبها ، ثم ذكر القسم الآخر وهو قده من قبل على علم بأنه لم ينقد من قبل حتى ينفى عن نفسه التهمة فى الشهادة وقصد الفضيحة ، وينصفهما جميعاً؛ فيذكر أمارة على صدقها المعلوم نفيه، كما ذكر أمارة على صدقه المعلوم وجوده، ومن ثم قدم أمارة صدقها على أمارة صدقه فى الذكر؛ إزاحة للتهمة، ووثوقاً بأن الأمارة الثانية هى الواقعة ، فلا يضره تأخيرها ، وهذه اللطيفة بعينها – والله أعلم– هى التى رعاها مؤمن آل فرعون فى قوله: وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ " فقدم قسم الكذب على قسم الصدق إزاحة للتهمة التى خشي أن تتطرق إليه فى حق موسى

– عليه السلام– ووثوقاً بأن القسم الثانى وهو صدقه هو الواقع ، فلا يضره تأخيره فى الذكر لهذه الفائدة." (٦٧)

خامساً: سوق المعلوم مساق غيره لغرض التقرير.

التقرير غرض من أغراض سوق المعلوم مساق غيره في النظم القرآني ؛ لأنَّ المتكلم عندما يسأل عما هو معلوم له قد لا يطلب إجابة ، وإنما يطلب حمل المخاطب على أن يقرّ بما فى مضمون الكلام، أو ربما يكون الغرض من إخراج المعلوم مخرج المجهول هو مجرد التحقيق والتثبيت دون النظر إلى حال المخاطب ، وهما معنيان من معاني التقرير، يقول ابن يعقوب:" ويكون لمعنيين: أحدهما: التحقيق والتثبيت ... والآخر: حمل المخاطب على الإقرار ، وإلجاؤه إلي ذلك الإقرار ، وإلزامه إياه لغرض من الأغراض (٦٨)

وهذان المعنيان يردان بكثرة فى النظم القرآنى، غير أنهما مع هذه الكثرة لا يخرجان عن صورة واحدة ؛ وهي سؤال المتكلم عما يعلم حقيقة ، وهذه الصورة هى من صميم هذا الفن ، والمعوّل عليه في إدراك الفرق بين المعنيين هو السياق وقرائن الأحوال وتتبع خواص التراكيب ، فضابط المعنى الأول وهو: التحقيق والتثبيت أن يلي حرف الاستفهام حرف النفي نحو" ألم- أليس-أفلا" فيكون المعنى وقتئذ على التحقيق والتقرير؛ لأنَّ نفي النفي إثبات ، والأمثلة على ذلك كثيرة وكلها من سؤال المتكلم عما يعلم ، نحو قوله تعالى: (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى)(٦٩)وقوله: (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)(٧٠)وقوله: (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)(٧١) وقوله: (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ)(٧٢) والمعنى في هذا الشواهد على التقرير ؛ إذا المعنى : بلى ربنا – بلى كاف عبده- قد شرحنا لك صدرك- بلى أحكم الحاكمين، وإدراك هذا المعنى سهل ميسور نصّ عليه اللغويون من أن نفي النفي إثبات، وإنما الذى ينبغي أن يوقف عنده هو السر البلاغي وراء العدول عن التقرير بالأسلوب الخبري إلى الأسلوب الإنشائي ، أوبعبارة أخرى: إذا كان التقرير بالأسلوب الإنشائي يؤول في النهاية إلى الأسلوب الخبري ، فلم لم يأت التقرير بالخبر بداية؟ وفي الإجابة على هذا السؤال تكمن القيمة البلاغية وراء العدول ، وهو أنَّ إخراج المعلوم مخرج المجهول يبعث على تحريك الذهن وتنشيط العقل، فضلا عما يوحيه من تلطف فى تقرير الحقائق، ورقة في عرض الدلائل والبراهين

، فلا يملك المخاطب بعدها إلا أن يقر بالإثبات ، فيجتمع في الكلام تقريران: إحداهما: تقرير المتكلم " التحقيق والتثبيت" ، والآخر: تقرير المخاطب الذى حمل عليه ؛ جراء روعة الأسلوب ودقة العرض كما هو واضح من نص ابن يعقوب السابق. وقد سجل النظم القرآني بعضاً من مشاهد التقرير بواسطة هذا الفن، عدولاً وخروجاً عن الظاهر، ومن ذلك ما ورد فى سياق سورة يونس(قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ) [٧٣] وسياق سورة المؤمنون(قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ* قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ *سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ)[٧٤] وسياق سورة النمل(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلاَلَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ * أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوَءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلا مَّا تَذَكَّرُونَ * أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) [٧٥]

والسياقات الثلاثة في مجملها حجة بالغة على هولاء المشركين وداحضة لمذاهبهم الفاسدة وعقيدتهم الباطلة ، حيث أحالتهم إلى عقولهم كي ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله فيه من مخلوقات يولد بعضها من رحم بعض ، فيعلموا أنَّ الله هو الرازق لهذه المخلوقات والواهب النعم " الحواس وغيرها" والمدبر لشئون عباده ، ومن ثمَّ سيقت هذه الأمور المعلومة مساق المجهولة لحمل المخاطب على الإقرار والاعتراف ، فالإقرار بالمنعِم يسبق شكر النعمة.

ففي سياق سورة يونس تتجه عناية السياق نحو حقيقة واحدة وهي الإقرار بوحدانية الله، ولأجل هذه الحقيقة سيق المعلوم مساق المجهول، وسأل عنها من هو

أعلم الناس بها -ﷺ-"عدولاً " مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ" " أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ " " وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ " " وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ " ففى السياق أربع استفهامات عن الرزّاق وعن المالك وعن المحيي وعن المدبر، وكلها أمور معلومة لا تصدر عن النبي – صلى الله عليه وسلم- إلا عدولاً، وهذا العدول لاعتبار مناسب وهو التقرير بوحدانية الله.

وإنما سلك النظم القرآني هذا المسلك حملاً لهم على الاعتراف وإلجائهم إلى الإقرار، يقول ابن عاشور:" وجاء الاستدلال بطريق الاستفهام والجواب ، لأنَّ ذلك في صورة الحوار ، فيكون الدليل الحاصل به أوقع فى نفوس السامعين"(٧٦)

وتعاور السياق لإظهار عجزهم فرأينا الطباق بين السماء والأرض وبين الميت والحيّ دالا على كمال القدرة وعظم الإحاطة ؛ فشمل رزقه السماء والأرض ، وتجلت قدرته في إخراج الحي من الميت والميت من الحي ، ومن كان هذا حاله فلا أقلّ من أن يعبد حق عبادته.

وقد راعى النظم القرآنى في سوقه للمعلوم مساق غيره إلى ما يلفت أنظارهم ويستدعي انتباههم ؛ فبدأ بالحديث عن الرزق لما فيه من قوام حياتهم، وصلاح معيشتهم، ثم خصَّ السمع والبصر دون غيرهما من الحواس ؛ لأنَّهما من ألطف الحواس و أشرفها، يقول الزمخشري: " من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذى سويا عليه من الفطرة العجيبة ، أو من يحميهما ويحصِّنهما من الآفات مع كثرتها ...وهما لطيفان يؤذيهما أدنى شيء؟""(٧٧)

ويبدو أن حدة الإنكار فى سياق " يونس" كانت أقل مما في سياق سورة المؤمنون ، حيث اكتفى في سياق سورة يونس بالأمر بالقول مرة واحدة في نهاية السياق فى قوله:" فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ " بخلاف سياق " المؤمنون " فقد ختمت كل آية بالأمر بالقول، إشعاراً بتصاعد حدة إنكارهم ومبالغة صدهم ، كما هو واضح من قولهم :" بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ * قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ""(٧٨) فناسب ذلك أن تصاعد حدة الإقرار فرأينا الأمر بالقول مع كل تقرير ؛ استجابة

للمقام كما هو واضح فى قوله تعالى:" قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا" " قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ " " قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ"

وقد راعى النظم القرآني الترقى من الأدنى إلى الأعلى فى سوق المعلوم مساق غيره ؛ حيث سألهم أولاً عن مالك الأرض ومن فيها ، ثم أعقبه بالسؤال عن رب السماء والعرش ، وهما آيتان أعظم من الأولى ، ثم ختم السؤال بما يشمل ذلك كله" قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ " وفى كل تقرير يختم كل عدول بما يلائمه ، يقول أبوحيان:" وختم كل سؤال بما يناسبه ؛ فختم ملك الأرض ومن فيها بالتذكر، أي " أَفَلَا تَذَكَّرُونَ "فتعلمون أنَّ من له ملك الأرض ومن فيها حقيق ألَّا يشرك به بعض خلقه في الربوبية ، وختم ما بعدها بالتقوى ، وهي أبلغ من التذكر وفيها وعيد شديد ، أي أفلا تخافونه فلا تشركون به، وختم ما بعد هذا بقوله:" فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ " مبالغة فى التوبيخ بعد إقرارهم وإلزامهم بما يقع عليهم به من الاحتجاج "(٧٩)

وكما كان لهذا الفن دور في خدمة الفكرة وتوضيح المعنى فى السياقين السابقين ، أسهم كذلك في تقرير وحدانية الله فى سياق النمل، عن طريق إخراج ما تضمنته الآيات من أمور معلومة مخرج المجهولة فى قوله تعالى: (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ * أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلا مَّا تَذَكَّرُونَ * أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُل لّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) (٨٠)

فمن المعلوم أنَّ هذه حقائق مسلمة ، وأنَّه لا خير فى أصنام جامدة لا تضر ولا تنفع حتى يوازن بينها وبين المعبود بحق ـ سبحانه وتعالى ـ ولكنَّه من باب سوق المعلوم مساق المجهول؛ إلزاماً لهم بالحجة ودحضاً لهم بالدليل من خلال هذه المقارنة

الصورية ، ومن خلال هذا الأسلوب المزلزل؛ تعريضاً وتهكماً بهم وسخرية من عقولهم الغائبة وقلوبهم الغافلة ، لأنَّ من كان هذا شأنه من خلق السموات والأرض ، وإنزال المطر، وإنبات النبات ، وتثبيت الأرض، وشق الأنهار – دون اختلاط مالحها بعذبها– وإجابة المضطر، وكشف السوء ، وهداية الخلق، وإرسال الرياح، فلا يعقل أن يشرك به، يقول الزمخشري:"معلوم أنه لاخير فيما أشركوه أصلاً حتى يوازن بينه وبين من خالق كل خير ومالكه ، وإنّما هو إلزام لهم وتبكيت وتهكم بحالهم ؛ وذلك أنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله ، ولا يؤثر عاقل شيئاً على شيء إلا لداع يدعو إلى إيثاره من زيادة ومنفعة" (٨١)

والسمة البارزة في هذا السياق هي تكرار أسلوب الاستفهام الباعث على التأمل وإعمال الفكر ، وهي كثرة لم نعهدها في السياقين السابقين على نحو قوله تعالى: ...آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ " وقوله: " أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ..." وقوله: " ...أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ " وقوله : " أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا ..." وقوله: " أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ..." وقوله: أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ..."

والسر البلاغى وراء هذا التكرار المزلزل أن يكون كل أسلوب بمثابة تأكيد على وحدانية الله ، وإفراده بالعبودية ، وتناغم السياق لإبراز هذا المعنى ، فحذف جواب الاستفهام فى كل مرة ، والتقدير : أمن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء ...كمن ليس كذلك ، وسر الحذف فى كل مرة هو تنزيه الله وتعظيمه أن تقرن به هذه الأصنام حتى ولو لفظاً ، يقول الدكتور / صباح عبيد دراز:" وهذا لون آخر من التقرير الذى يفاد بدءاً ؛ ليترتب عليه الإنكار ، ونجد الأداء القوى والنكير الصارخ والواقع النافذ حين يعقد القرآن موازنات صورية بين الله – تعالى – بجلاله وكماله وأسمائه الحسنى ، وبين المعدوم الجامد الشائه من الآلهة المزعومة ، لا لذات الموازنة بل للتعجيز والسخرية والتعجب من قوم همدت فيهم نوازع العقل إلى الأسفل ، وتحريكاً لهذا الفكر الآسن"(٨٢)

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين حمداً يليق بكمال وجهه وعظيم سلطانه ، اللهم لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد...

فلعل فى هذه الصفحات ما يؤكد أن سوق المعلوم مساق غيره مظهر من مظاهر خروج الكلام على مقتضى الظاهر لاعتبار مناسب وغرض بلاغي ، وإذا كان الأمر كذلك فهو من علم المعانى ألصق وإلى أبوابه أقرب ، وهذا ما أكدت عليه الدراسة السابقة فى دراستها النقدية(**سوق المعلوم مساق غيره بين علمي المعاني والبديع**)، غير أننا فى هذا الدراسة عايشنا هذا الفن من خلال بعض مواقعه وأسراره البلاغية فى ضوء النظم القرآنى، وقد أسفرت هذه المعايشة عن النتائج التالية:

(١) تأتّى هذا الفن فى نوعى الأسلوب خبراً وإنشاء، فمن شواهد الخبر ـــ وهى قليلة جداً ـــ قوله تعالى:" وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ " وقوله: " وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ " وقول شاهد سيدنا يوسف عليه السلام :" إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ".

وأما شواهد الإنشاء فهى متعددة بتعدد أساليب الاستفهام المراد بها غير معانيها الحقيقة.

(٢) ملازمة هذا الفن لأسلوب الاستفهام ملازمة تستدعي الانتباه وتلفت الأنظار ، ونادراً ما يفترقان مما يدل على أن " سوق المعلوم مساق غيره " أعم من الاستفهام ،ومن ثمّ يمكن سلك الاستفهام غير الحقيقى فى هذا الفن دون العكس .

(٣) كشفت الدراسة عن صورتين جديدتين لهذا الفن لم يعرفا عند العرب؛ الأولى : تنكير المعرَّف، والأخرى : تردد الأمر بين شيئين مع أن المعلوم للمتكلم عكسهما، وقد اجتمعا فى شاهد واحد فى قوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ)

(٤) أنَ تناول النظم القرآني لهذا الفن " سوق المعلوم مساق غيره " وإن كان لايختلف كثيراً عما كان عليه عند العرب ،إلا أن النظم القرآني قد هذب أغراضه وأبان عن دوره فى خدمة المعنى وتجلية الفكرة ، بطريق برهاني وأسلوب استدلالي ، ويكثر ذلك فى مقام الجدل والمخاصمة ، أو الدعوة أو النصح والإرشاد.

المصادر والمراجع

الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية فى القرآن الكريم – للأستاذ الدكتور صباح عبيد دراز. ط/ الأولى ــ ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م ــ مطبعة الأمانة ــ دوران شبرا ــ مصر.

إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لقاضي القضاة أبي السعود محمد بن محمد العمادي– دار إحياء التراث العربي– بيروت – الطبعة الرابعة– ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م

إعراب القرآن الكريم وبيانه ــ تأليف / محيي الدين الدرويش – دار ابن كثير للطباعة والنشر– دمشق ــ الطبعة الخامسة ١٤١٧هــ ١٩٩٦م

الإيضاح للخطيب القزويني ــ ضمن شروح التخيص ــ دار الكتب العلمية– بيروت ــ بدون تاريخ

البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي الغرناطي – دار إحياء التراث العربى– بيروت– ط/ الثانية ــ ١٤١١هـ ١٩٩٠م

البديع لابن المعتز ــ تعليق / إغناطيوس كراتشقوفسيكى ــ دار المسيرة. الطبعة الثانية.

التحرير والتنوير– تأليف/ محمد الطاهر بن عاشور– دار سحنون – تونس. بدون تاريخ.

الجنى الدانى فى حروف المعانى للمرادى ــ تحقيق/ فخر الدين قباوة ، و محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية. بيروت ــ ط/ الأولى ــ ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م

دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني – تحقيق/ محمود محمد شاكر– مطبعة المدني– القاهرة ــ الطبعة الثالثة ١٤١٣هــ ١٩٩٢م

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة الألوسي البغدادي – دار إحياء التراث العربي – بيروت – الطبعة الرابعة– ١٤٠٥هــ ١٩٨٥م

عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي ــ ضمن شروح التلخيص ــ دار الكتب العلمية. بيروت. بدون تاريخ

علم المعانى د/ حسن طبل – مكتبة الإيمان بالمنصورة . مصر ـــ ط/ الأولى ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م

العمدة لابن رشيق ــ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. ــ طبعة دار الجيل ــ بيروت ــ الطبعة الخامسةــ ١٤٠١هـ ١٩٨١م

الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان لابن القيم الجوزية ــ مكتبة المتنبى. القاهرة ــ بدون تاريخ .

الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل – تأليف/ الإمام جار الله الزمخشرى– دار الكتب العلمية– بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٥هـ،١٩٩٥م

لسان العرب لابن منظور ــ طبعة – دار إحياء التراث الإسلامى. بيروت ــ ط/ الثالثة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م

معاني القرآن للفراء ــ تحقيق/ أحمد يوسف نجاتى ، محمد على النجار_ مطبعة دار السرور. بدون تاريخ .

مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي ضمن شروح التلخيص ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت .

الانتصاف لابن المنير الإسكندرى على الكشاف عن حقائق غوامض التتريل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل دار الكتب العلمية- بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٥هـ،١٩٩٥م

الهوامش والإحالات

[١] – ينظر مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح ضمن شروح التلخيص ج–٤ ص–٤٠٣ – دار الكتب العلمية – بيروت – بدون تاريخ .

[٢] – ونقصد بالأسماء الأخرى(تجاهل العارف) عند ابن المعتزفى كتابه البديع – الطبعة الثانية – تعليق إغناطيوس كراتشقوفسيكى – دار المسيرة – ص–٦٣. و(الإعنات) عند بهاء الدين السبكى فى عروس الأفراح – ج–٤ ص–٤٠٣ ضمن شروح التلخيص، و(التشكيك) عند ابن رشيق فى العمدة ص–٦٦، و(الاستفهام)عند ابن القيم الجوزية فى كتابه الفوائد المشوق ص–١٥٨، ويرى كل من الدكتور/ محمد حسن عبد الله والدكتور/ ربيع عبد العزيز أنه ليس لابن القيم كتاب بهذا الاسم ، وإنما المتداول في أسواق الكتب هو مقدمة تفسير ابن النقيب. وأرى أن الأمر ملتبس عليهما، لأن النسخة التي رجعت إليها بين يدي وفي مكتبتي ، وتنص على أن نسبة الكتاب لابن القيم صحيحة، ط/ مكتبة المتنبي ، القاهرة.

[٣] – ينظر مواهب الفتاح ج–٢ ص–٢٣٨ ضمن شروح التلخيص

[٤] – –ينظر مواهب الفتاح ج–٢ ص–٢٣٨ ضمن شروح التلخيص

[٥] – سورة الأعراف الآية ٥٣

[٦] – سورة إبراهيم الآية ٢١

[٧] – سورة الشعراء الآيات ١٩٨ – ٢٠٣

[٨] – سورة غافر الآية ١١

[٩] – سورة غافر الآية ٤٧

[١٠] – سورة الشورى الآية ٤٤

[١١] – سورة ق الآية ٣٦

[١٢] – سورة القيامة الآية ١٠

[١٣] – ينظر التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج– ٥ ص– ١٥٤ – دار سحنون – تونس. بدون تاريخ

[١٤] – ينظر الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي ص– ٣٤٢ – تحقيق / فخر الدين قباوة ، محمد نديم فاضل – دار الكتب العلمية. بيروت – ط/ الأولى ١٤١٣هـ ١٩٩٢م

[١٥] – سورة الأنعام الآية ٢٧

[١٦] – سورة إبراهيم الاية ٢١

[١٧] – سورة غافر الآية ٤٧

[١٨] – سورة غافر الآية ٤٨

[١٩] – سورة العنكبوت الآية ١٢

[٢٠] – الكشاف عن غوامض التتريل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل – تأليف الإمام جار الله الزمخشرى – ج–٢ ص–٥٢٧– دار الكتب العلمية – بيروت– الطبعة الأولى ١٤١٥هـ–١٩٩٥م.

[٢١] – الإيضاح – للخطيب القزويني ضمن شروح التلخيص ج–٢ ص– ٢٦٩ ، ويقول الأستاذ/ عبد السلام هارون : " والأرجح فى استعمال " هل" أن توصل بالفعل لفظا أو

تقديراً ، ولايأتي بعدها جملة اسمية إلا لغرض بلاغي ؛ كجعل ما سيحصل كأنه حاصل بالفعل ، ومنه قوله تعالى :" فهل أنتم شاكرون " ص٢٠ – الأساليب الإنشائية فى النحو العربى – مكتبة الخانجي – الطبعة الخامسة.

٢٢ – سورة الشعراء الآيات ١٩٨– ٣٠٣

٢٣ – البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى الغرناطى ج–٧ ص–٤٢ – دار إحياء التراث العربى – بيروت. ط/ الثانية – ١٤١١هـ ١٩٩٠م

٢٤ – البحر المحيط ج– ٧ ص– ٤٣

٢٥ – سورة غافر الآية ١١

٢٦ – علم المعانى – د/ حسن طبل – مكتبة الإيمان بالمنصورة – الدراسة –– ط/ الأولى – ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م ص– ٨٢

٢٧ – سورة الشورى الآية ٤٤

٢٨ – التحرير والتنوير ج–١٢ ص١٢٤ –

٢٩ – الكشاف ج– ٣ ص– ٥٥٣

٣٠ – التحرير والتنوير ج– ١١ ص– ١٤٨

٣١ – سورة البقرة الآية ١٤٦

٣٢ – ينظر بحثنا المتقدم " سوق المعلوم مساق غيره بين علمي المعاني والبديع " رؤية بلاغية .

٣٣ – سورة سبأ الآية ٤٣

٣٤ – الإيضاح ضمن شروح التلخيص ج–٤ ص– ٤٠٣– ٤٠٥

ويرى السبكى أن هذا الأسلوب من تجهيل العارف، وليس من تجاهل العارف قائلا:" وقد عدوا من تجاهل العارف ما يسمي " تجهيل العارف" كقول الكفار لإخوانهم الكفار" هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ " فقد جهلوهم مع كونهم عارفين بالنبى – ﷺ– لغرض فاسد – لعنهم الله – عروس الأفراح – ضمن شروح التلخيص ج– ٤ ص– ٤٠٦ ، وكلام السبكى لإيؤيده السياق ؛ لاستحالة أن يجهل بعضهم بعضاً ، ويسخر بعضهم من بعض وهم جميعا فى خندق واحد أمام دعوة تسب آلهتهم وتسفه أحلامهم وتضلل آباءهم – على حد زعمهم – بالإضافة إلى عدم وجود اعتبار مناسب يمكن أن يعول عليه عند القول بتجهيل العارف .

٣٥ – سورة الأنعام الآيتان ١٤٣ – ١٤٤

٣٦ – سورة الأنعام الآيتان ١٣٨ – ١٣٩

٣٧ – الكشاف ج–٢ ص– ٦٨

٣٨ – سورة المائدة الآية ١٠٣

٣٩ – الكشاف ج١ ص– ٦٧٠

٤٠ – ينظر العمدة لابن رشيق – طبعة دار الجيل – بيروت – الطبعة الخامسة – تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ج– ٢ ص– ٨٠ ط/ الخامسة – ١٤٠١ هـ ١٩٨١م ، والمثل السائر ج– ٢ ص– ٦١ – المكتبة العصرية – صيدا – بيروت – تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد

٤١ – دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني ص– ١١٥ – تحقيق محمود محمد شاكر– مطبة المدني – الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ– ١٩٩٢م

٤٢ – معاني القرآن للفراء ج– ١ ص– ٣٦٠ –– تحقيق / أحمد يوسف نجاتي ، محمد علي النجار – مطبعة دار السرور. بدون تاريخ .

٤٣ – الكشاف ج–٢ ص– ٧١

٤٤ – سورة الأنعام الآيتان ١٤١–١٤٢

٤٥ – سورة يونس الآية ٥٩

٤٦ – الدلائل ص–١١٥

٤٧ – الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم – مطبعة الأمانة – دوران شبرا / مصر – ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦م ص– ٢٠٠

[48] – الكشاف ج–٢ ص– ٣٤١
[49] – لسان العرب مادة (ن – ص – ف) ج– ١٤ ص– ١٦٦
[50] – سورة غافر الآيتان ٢٨، ٢٩
[51] – الكشاف ج– ٤ ص– ١٥٩
[52] – البحر المحيط ج– ٧ ص– ٤٥٨
[53] – إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الحكيم ج–٤ ص– ١٥٨
[54] – ينظر تعليق ابن المنير على الكشاف ج– ٤ ص– ١٥٨
[55] – روح المعاني للألوسي ج– ٢٤ ص– ٦٤
[56] – الكشاف ج– ٤ ص– ١٥٨
[57] – البحر المحيط ج– ٧ ص– ٤٥٨
[58] – سورة سبأ الآيات ٢٤ ، ٢٥، ٢٦
[59] – معاني القرآن للفراء ج–٢ ص–٣٦٢
[60] – سورة سبأ الآية ٢٢
[61] – سورة سبأ ألآية ٢٣
[62] – إعراب القرآن الكريم وبيانه ج– ٨ ص–٩٢
[63] – الإيضاح للخطيب القزويني ج– ٤ ص– ٤٠٥، ٤٠٦
[64] – إرشاد العقل لسليم ج–٧ ص– ١٣٣
[65] – الكشاف ج– ٣ ص– ٥٦٤
[66] – سورة يوسف الآيتان ٢٦، ٢٧
[67] – الانتصاف للإمام أحمد بن المنير الاسكندري ج–٢ ص– ٤٤٢، ٤٤٣
[68] – مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي ص– ٢٩٤ ضمن شروح التلخيص .
[69] – سورة الأعراف الآية ١٧٢
[70] – سورة الزمر الآية ٣٦
[71] – سورة الشرح الآية ١
[72] – سورة التين الآية ٨
[73] – سورة يونس الاية ٣١
[74] – سورة لمؤمنون الآيات ٨٤– ٨٩
[75] – سورة النمل الآيات ٦٠ – ٦٦
[76] – التحرير والتنوير ج– ٦ ص– ١٥٥
[77] – الكشاف ج–٢ ص– ٣٣٣
[78] – سورة المؤمنون ٨١– ٨٣
[79] – البحر المحيط ج– ٦ ص– ٤١٧
[80] – سورة النمل الآيات ٦٠– ٦٦
[81] – الكشاف ج– ٣ ص– ٣٦٣
[82] – الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية ص–٢١٦